◆ تأثير التوابع والزوابع فى رسالة الغفران

وُجدت فى دوائر الاستشراق بحوث كثيرة حول صلة رسالة الغرفان بالكوميديا الإلهية لدانتى ، وأسرف الكاتبون فى هذه الناحية إسرافًا لا يزال يتجدّد ، ومع هذا السرف المسرف فى تأكيد العلاقة بين الأثرين الأدبيين الكبيرين أو نَفْيهَا ، فإننا لم نر فيما قرأنا لهؤلاء بحثًا يحلل صلة الغفران بالتوابع والزوابع تحليلاً جديًّا مدعمًا ، وعلى افتراض أن تكون الصلة مقطوعة مجذومة ، أفلا يكون هذا القطع المجذوم موضع بحث يقضى على الشبهات – مهما كان الأثران النفيسان فى أدب واحد ، وفى حقبة واحدة تدعو الباحث إلى نظر بصير ؟

ولكنَّ كُتَّابَ العرب لم يغفلوا ذلك ، فمنذ عُرفت رسالة التوابع والزوابع سنة ١٩١٥ فى مصر ، حين اهتم بها الأستاذ محمد المهدى لأول مرة فى عصرنا الحديث ، فتحدث عنها لطلابه بالجامعة المصرية القديمة ، وهم – فيما بعد – ذوو نباهة وتمحيص ، منذ ذلك الحين والآراء تختلف حول صلة التوابع والزوابع برسالة أبى العلاء ، فتارة تؤكد هذه الصلة ، وتارة تجزم بامتناعها ، ونحن – أبناء العرب – قد ورثنا ابنَ شهيد وأبا العلاء معًا ، فلن نتحيّز لأديب منهما على الآخر ، ولكننا حين نبحث هذا الموضوع نكشف عن وجه الحق كما يتراءى لناظره ، ونقدم من الأدلة ما نراه يميل برأى على رأى ، ويهمنا أن تنفرج دائرة هذه الآراء عن صواب سديد .

وإذا كانت رسالة أبى العلاء من الشهرة والذيوع بحيث لا تحتاج هنا إلى تلخيص أو تحليل ، فإن رسالة ابن شهيد تحرز كثيرًا من طرافتها الخالبة ، فقد تحدث صاحبها عن رَئِىٍّ[1] أديب من الجن كان يصاحبه فى رحلته إلى ديار عَبْقَر ، يسير به كالطائر يجتاب الجوَّ فالجوَّ ، ويقطع الدَّوَّ فالدوّ[2] ، حتى يشارف أرضًا لا كأرضنا ، وجوًّا لا كجوِّنا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فيصل به إلى دارات مُلْهِمِى الشعر ، ويناقش معه صاحب امرىء القيس ، يستمع منه ويُسمعه ، ثم يغادره إلى أصحاب طرفة بن العبد ، وقيس بن الحطيم ، وأبى تمام ، والبحترى ، وأبى نواس ، وكلهم يسمعهُ ويجيزه ، ثم ينتهى به إلى شياطين الكُتَّاب ، ويسميهم ابن شهيد «خطباء» ، فيلقاهم فى محفل واحد ، ويسامر أصحاب الجاحظ ، وعبد الحميد ، وبديع الزمان على نحو يضمن الْفَلْجَ[3] والانتصار لابن شهيد ، وأنا لم أعرف أن للكتاب شياطين كما للشعراء إلا حين قرأتُ رسالة التوابع والزوابع ، فلعل ابن شهيد يشير إلى أن الإلهام ذو أصل واحد عند أولئك وهؤلاء .. ومضت الرسالة تفتنّ فى عرض هذه الرحلة الأدبية عرضًا يستريح له القارىء ، وإنْ ثارَ على بعض ما يتردد بها من الأحكام القاطعة كما يعتنقها ابن شهيد ويحاول أن يقنع بها الناس .

وأعجب ما يروقنى فى التوابع والزوابع قدرةُ صاحبها على الوصف المناسب ، وتدسّسه إلى مواطن الغمز فى حيوات الأدباء وأشعارهم ، فصاحبُ أبى تمام يأوى إلى شجرة غيناء ، يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء ، فإذا ناداه اشتق الهواء صاعدًا من الماء (وكان أبو تمام سَقَّاءً يبيع الماء أول أمره) ، فيسأله : وما الذى أسكنك قعر هذه العين ؟ فيقول : حيائى من التحسّن باسم الشعر وأنا لا أحسنه . وصاحب أبى الطيب المتنبى صلف فخور ، يسمع غيره ولا ينشد لنفسه ، وهو فارس على فرس بيضاء ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ، قد أرخى لها عَذَبة صفراء ، وقد حَيَّاه فأحسن الرد ، ناظرًا من مقلة شَوْسَاء[4] ، قد ملئت تيهًا وعجبًا . وصاحب بديع الزمان الهمذانى ، يسمع أبا عمر بن شهيد حاسدًا مغيظًا ، ثم يضرب الأرض برجله فتنفرج له

---

(١) الرَّئِىُّ ، بفتح الراء وكسرها : الجِنِّىُّ يعرض للإنسان ويطلعه – على ما يزعمُ – من الغيب .

(٢) الدّوّ : الغلاة الواسعة .

(٣) الفَلْجُ : الفَوْزُ والظَّفَر .

(٤) أى : ناظرًا بمؤخر عينه تكبُّرًا وتَغَيُّظًا .

عن مثل «برهوت» يتهادَى إليها ، فتجتمع إليه ، ويغيب بها . أما صاحبا الجاحظ وعبد الحميد فيقولان له : إنا لنخبط منك فى بيداء حيرة ، وتفتق أسماعنا منك بعبرة ، ولا ندرى أنقول شاعرًا أم خطيبًا ؟ فيقول ابن شهيد : الإنصاف أولى ، والصدع بالحق أحْجَى ، ولابد من قضاء .

فيردان عليه : انصرِفْ فأنت شاعر وخطيب معًا ... ويمضى والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه ماثلة .

أما صاحب أبى نواس فما أحسن ما تحدث عنه أبو عامر . رآه فى دير حنة ، وهو دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك نوافحه ، وأقبلت نحوه الرهابينُ مشددة بالزَّنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا للمرء استحيا ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا : أهلاً بك من زائر ، ما بُغْيتُكَ ؟ فقال : صاحب أبى نواس . فقالوا : إنه فى شرب «الخمرة» منذ أيام عشرة ، وما ستنتفع به ، فقال أبو عامر : ونزلنا ، وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانة ، وعكفت غزلانه ، وفى فرجته شيخ طويل الوجه والسَّبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وحواليه صبية ، فحييناه ، فجاوب بجواب من لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فأنشدناه بعض خمرياته (وذكرها ابن شهيد) فصاح من حبائل نشوته ، واستدعى ماءً قُراحًا ، فشرب منه وغسل وجهه فأفاق ، واعتذر إلىَّ من حاله ، فأدركتنى مهابته ، وأخذت فى إجلاله ، وأخذت أنشده قصائدى ، فقام يرقص ويردد ، ويقول : هذا والله شىء لم نلهمه نحن .. ثم استدنانى ، فدنوت منه ، فقبّل بين عينى وقال : اذهب فإنك مُجَازٌ .

على هذا النمط البديع سارت رسالة التوابع والزوابع ، فأعجبت القراء ، وتصارع حولها الباحثون من الأدباء . ونحن هنا نوجز ما عثرنا عليه مما قيل ، معقبين بما يتضح لنا بعد الإمعان .

★★★

أشار الأستاذ الدكتور أحمد ضيف فى كتابه «بلاغة العرب فى الأندلس »[1] إلى أن ابن شهيد قد تأثر بأبى العلاء ، وهو أول باحث عربى أصدر حكمه فى هذه المسألة ، وكان دليله الأول أن شهرة أبى العلاء قد طبقت المشرق والمغرب ، فلابد أن يكون أبو عامر قد قرأ رسالته واحتذاه .

يقول الدكتور ضيف[2] : «وقد كتبَ رسالةً هى أشبه برسالة الغفران من حيث أسلوبها الأدبى ، وسماها التوابع والزوابع ، وكان يقلد أبا العلاء فى ذلك ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون المشرق فى كل شىء » .

وأستاذنا الدكتور ضيف كان يكتب دراسة موجزة منهجية فى أدب الأندلس لأول مرة فى العصر الحديث ، فلم يكن من همه أن يقف وقفات طويلة عند كل رأى ، ولو فعل لامتد به التأليف إلى أجزاء طوال ، وهذا لم يكن ، لأنه كان يلقى الأضواء الأولى على تراث ثمانمائة عام ، ويجتهد قدر الطاقة أن يحشد من المؤلفات والمؤلفين ما يسمح به مجال مذكرة جامعية تُلقى على الطلاب ، ولسنا – شهد الله – نُضَائِل من كتابه الرائد ، فحسبه أن كان الخطوة الأولى فى طريق المكتبة الأندلسية المعاصرة ، ولكننا نقول إن أثر العجلة السريعة قد ظهر فى حُكمه على ابن شهيد بتقليد أبى العلاء ، إذ إن أقوى حجة لديه أن عصر ابن شهيد يتدرج فى عصر أبى العلاء ، فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٢٦هـ وعاش المعرى من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩ ، وكانت شهرته أَذْيَعَ وأشهر ، ولو سلمنا أن شهرة أبى العلاء كانت مستفيضة فى الأندلس ما منعه ذلك أن يقرأ أدب الأندلس ويرجع إليه ، وإذا كان المعرى المتمكن المتمرس يجلس مجلس الأستاذ من ابن شهيد الشاب اللاهى – فى تقدير مؤرخى الأدب – فكم من أستاذ تأثر ببعض أفكار تلاميذه ، فليست استفاضة الشهرة وحدها دليلاً يعتمد عليه فى ذلك حتى يتقدم به الدكتور ضيف فى تأييد حكمه دون أن يشفع به بعض المبررات المحتملة ، وما كان أكثرها لو اتسع أمامه المجال على اطمئنان وئيد .

---

(١) بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف ، ط أولى ص ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

أما الدكتور زكى مبارك – فى الجزء الأول من النثر الفنى – فقد وقف تجاه المسألة وقفة طويلة ، فتأمل كلام الدكتور ضيف ، ثم اتضح له ما يخالفه ، واستند إلى مؤكدات ملموسة من المنطق والتاريخ ، فصَّلها حين قال[1] :

«وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة ، فبحثنا طويلاً عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فلم نهتد ، ولكننا رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل ، فقد جاء على لسانه ما يُشير إلى أنّ مِنْ إخوانه مَنْ بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة .... ولكن لا ينبغى أن تخدعنَا هذه التعابير ، فهناك نصّ يدل على أنه وضعها وهو شاب ، فقد حدثنا فى التوابع والزوابع أنّ الجن قالوا له : بلغنا أنك لا تُجَارِى فى أبناء جنسك ، ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟ وقد أجاب : جاران دارهما صقب ، وثالث نابته نوب ، فامتطى ظهر النوى ، وانتضَى عَلَىَّ لسانه عند المستعين . وهذا يُشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين ، وقد بُويع بقرطبة سنة ٤٠٠هـ ثم جددت بيعته سنة ٤٠٣ ، ومات مقتولاً سنة ٤٠٧ ، ومن هنا نرجح أن رسالة التوابع والزوابع كُتبت بين سنة ٤٠٣ ، ٤٠٧هـ .

هذا جانب من المسألة ، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وُضعت فيه رسالة الغفران ، وإذا كانت الرسالة جوابًا على رسالة ابن القارح ، فقد عُدْنا إلى رسالة ابن القارح فانتهينا إلى قوله : «وكيف أشكو من قَاتَنِى وعالَنِى سبعين سنة » ، فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعينَ ، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ ، فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ٧٠ وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٤٢١ ، وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كُتبت حوالى ٤٢٢ ، وإذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفًا وسبعين ، وللنيّف دلالاته ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الرسالة بأنه يستطيع بغيره ، كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٤٢٢ ، سنة ٤٢٤ » .

ثم قال الدكتور مبارك : «ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كُتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قَلَّدَ

(١) النثر الفنى ، للدكتور زكى مبارك ج ١ ص ٢٥٩.

ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس ، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودَوَّنَها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ، وقبل أن توضع رسالة الغفران .... » .

نتيجة جديدة مضادة قد انتهى إليها الدكتور مبارك ، وهى ذات دليلين ، دليل قطعى ، ودليل راجح ، فالدليل القطعى أن ابن شهيد لم يقلد أبا العلاء بالمرة ، لأن رسالة الغفران قد كُتبت سنة ٤٢٤ ، وابن شهيد مات سنة ٤٢٦ بعد مرض أقعده مدة طويلة ، وقد كُتبت رسالته قبل ذلك بأعوام كثيرة ، قدرها الدكتور مبارك بنحو عشرين عامًا .. والمؤكد أنها أقل من ذلك – كما قرر الدكتور أحمد هيكل – وسيأتى توضيح رأيه عن قريب ... هذا هو الدليل القطعى ، أما الدليل الراجح ، فهو أن أبا العلاء تأثر بابن شهيد ، لأن رسائل ابن شهيد ذاعت فى المشرق ودَوَّنها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ابن شهيد، وقبل أن تُوضع رسالة الغفران .. فلابد أن تكون قد انتهت إلى أبى العلاء .. وقد بحثت فى كتب المشرق التى عناها الدكتور مبارك ، فرأيت أن يتيمة الدهر للثعالبى هى التى تحدثت عن ابن شهيد فى حياة أبى العلاء ، فذكرت بعض شعره وبعض نثره ، بدون أن تشير إلى رسالة التوابع ، وكان علىَّ بعد ذلك أن أثبت شيئين مُهمين فى هذا الصدد ، الشىء الأول : أن الثعالبى كان يعرف رسالة التوابع ، والشىء الثانى : أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة .

أما أن الثعالبى كان يعرف رسالة التوابع ، فواضح من مختاراته الشعرية والنثرية لابن شهيد ، إذ إن من يقرأ الجزء الثانى من يتيمة الدهر يجد المختارات قد جاءت (ابتداءً من ص ٣٥) كما يلى :

المقطوعة الأولى مختارات من قصيدة
شجته طلول من سليمى وأدورُ (ص٣٥ جـ٢)

المقطوعة الثانية مختارات من قصيدة
أمِن رسم دار بالعقيق محيل (ص٣٦ جـ٢)

المقطوعة الثالثة مختارات من قصيدة

منازلهم تبكى إليك عفاءها (ص٣٧ جـ٢)

المقطوعة الرابعة مختارات من قصيدة

أبكيت إذ ظعن الفريق فراقها (ص٣٧ جـ٢)

المقطوعة الخامسة مختارات من قصيدة

أفى كل عام مصرع لعظيم ؟ (ص٣٩ جـ٢)

المقطوعة السادسة مختارات من قصيدة

هذه دار زينب والرباب (ص٣٩ جـ٢)

المقطوعة السابعة مختارات من قصيدة

أصفيح شيم أم برق بدا (ص٤٠ جـ٢)

المقطوعة الثامنة مختارات من قصيدة

أبرق بدا أم لمع أبيض فاصل (ص٤١)

المقطوعة التاسعة مختارات من قصيدة

هاتيك دارهم فقف بمغانها (ص٤٢)

المقطوعة العاشرة مختارات من قصيدة

ومر تجز ألقى بدى الأثل كَلْكَلا (ص٤٣)

المقطوعة الحادية عشرة مختارات من قصيدة ... (ص٤٣)

هذه القصائد نقلت هكذا وفق ترتيبها فى رسالة التوابع والزوابع ، كما ذكرها ابن بسام بالذخيرة ١-١ ابتداء من ص ٢١٣ حيث المقطوعة الأولى ، وص ٢١٤ حيث المقطوعة الثانية ، وص ٢١٦ حيث المقطوعة الثالثة ، وص ٢١٧ حيث المقطوعة الرابعة ، وص ٢١٨ حيث المقطوعة الخامسة ، وص ٢٢٠ حيث المطقوعة السادسة ، وص ٢٢٣ حيث المقطوعة السابعة ، وص ٢٢٦ حيث المقطوعة الثامنة ، وص ٢٢٨ حيث المقطوعة التاسعة ، ولم يذكرها ابن بسام بطولها كما جاءت فى أصل الرسالة ، لأنه سبق أن ذكرها ص ١٧٣ ،

فلم يشأ التكرار ، وص ٢٣٦ حيث المقطوعة العاشرة ، وص ٢٣٧ حيث المقطوعة الحادية عشرة .

فتوالى المختارات وفق ترتيب رسالة التوابع والزوابع ، ينطق بأن الثعالبى قد نقل عنها ، وأنها كانت تحت يديه حين حدثه أبو سعيد بن دوست عن ابن شهيد[١] ، ولئن جاءت المختارات ناقصة الأبيات عن قصائد الرسالة فإن الثعالبى قد اختار منها ما راقه ، وليس له أن يتقيد بجميع ما قال ابن شهيد ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الشعراء ، أما مختارات الثعالبى النثرية فهى أيضًا من الرسالة ، مثل وصف البرغوث ، والبرد ، والبعوض ، والنساء ، والنار ، وإذا كانت بعض هذه الأوصاف لا توجد الآن فيما رواه ابن بسام ، فالسبب واضح ، هو أن ابن بسام يعترف أنه لم يَرْوِ جميع الرسالة ، وإنما ينقل بعض المختارات ، فما جاء به الثعالبى مما ليس فى الرسالة – على ندرته – قد أغفله ابن بسام مع ذيوعه لدى غيره . ولو ذكرت رسالة التوابع بنصها فى الذخيرة لرأينا كل ما جاء .

أما أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة فذلك ما توحى به البداءة ، لأن كتاب الثعالبى قد صدر فى حياة أبى العلاء وكان له ضجيج ورنة ، إذ شَرَّقَتِ اليتيمة وغرَّبت ، وتحدثت عن شعراء يعاصرون شاعر المعرَّة ، ومن الطبيعى أن يُسأَل عنهم فى مجالسه من تلاميذه ، وأن يصدر فيهم رأيه ، بل إن الثعالبى تعرض لأبى العلاء ، إذ نقل أحاديث الأدباء عنه وروى بعض أخباره وأشعاره ، وليس من المعقول أن يخفى ذلك عن طلعة بصير كأبى العلاء . قال ياقوت الحموى[٢] :

وقال أبو منصور الثعالبى فى يتيمة الدهر : «وكان حدثنى أبو الحسن الدلفى المصيصى الشاعر ، وهو من لقيته قديمًا وحديثًا فى مدة ثلاثين سنة ، قال : لقيتُ بمعرَّة النعمان عجبًا من العجب ، رأيت شاعرًا ظريفًا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل

(١) الجزء الثانى ، ص ٢٥ .

(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٢٨ ، ط دار المأمون .

فن من الجد والهزل ، يُكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : إنِّى أحمد الله على العَمَى كما يحمده غيرى على البصر . قال : وحضرته يومًا وهو يملى جوابَ كتابٍ وَرَدَ عليه من بعض الرؤساء (وذكر الأبيات ثم قال) وأنشدنى لنفسه :

لستُ أَدْرِى ولا المنجم يدرى ... ما يريد القضاءُ بالإنسانِ
غير أنى أقولُ قَوْلَ محقٍّ ... قد يرى الغيب فيه مثل العيانِ
إنَّ مَنْ كان محسنًا فأبكنيه ... لجميل عواقب الإحسان!»

فرسالة التوابع ذاعت فى المشرق ، وصاحبها مشهور ، تحدثت عنه يتيمة الدهر وهى بعد أوسع ذخائر الأدب اشتهارًا ، وقرأها أبو العلاء فعرف ابن شهيد دون جدال ..

لقد بان إذن بعض الحق فى رأى الدكتور مبارك ، ولكن الدكتور أحمد أمين ينسب هذا الرأى لبعض المستشرقين دون أن يسميه ، فيقول ما نصه[1] :

«وقد ظن قوم أن التوابع والزوابع وُضعت تقليدًا لرسالة الغفران ، ورأى بعض المستشرقين أن العكس هو الصحيح ، وأن أبا العلاء هو الذى قَلَّدَ ابن شهيد . ورجح أن التوابع والزوابع أُلفت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين سنة ، وذلك لأن ابن شهيد ذكر فى رسالته ما يدل على أنه ألفها فى عهد المستعين ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الناصر ، وكان مدة حكم المستعين هذا من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٤٠٧ (الصحيح أنه خلع من ٤٠٠– ٤٠٣ وولى بعد ذلك) ، كما نعلم أن أبا العلاء ألف رسالة الغفران رَدًّا على ابن القارح ، وكان أبو العلاء قد بلغ نحو السبعين – كما تدل عليه فقرة فى الرسالة نفسها – فيكون قد كتب رسالته حوالى سنة ٤٢٢ ، وعلى هذا تكون رسالة التوابع والزوابع كُتبت قبلها بنحو ٢٠ سنة ، وقد أخذ أبو العلاء الفكرة وطبقها تطبيقًا لطيفًا ، ونحا بها نحوًا يخالف بعض الشىء رسالة ابن شهيد ، وإنْ كان أساسُ الفكرة عند ابن شهيد ودانتى وأبى العلاء واحدًا » .

---

(١) ظهر الإسلام ، ج ٣ ص ٢١٠ .

وأُرجح أن صاحب هذا البحث هو الدكتور زكى مبارك ، إذ لو سبق به بعض المستشرقين لذاع واشتهر ، وأظن أن الدكتور أحمد أمين قد سها حين عزاه إلى غيره ، لأنه قرأ النثر الفنى وعده بين مراجعه آخر الكتاب ، ولو تأكد من سبق غيره فى ذلك لذكر اسمه على الأقل .

ثم جاءت السيدة الدكتورة بنت الشاطىء تعلن رأيها فى هذه المسألة ببحثها القيم عن (الغفران)، وقد نالت به درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز سنة ١٩٥٠ ، فذكرتْ رأْيَىِ الدكتورين أحمد ضيف وزكى مبارك ، مؤكدة «أن دعوى التشابه والتقليد بين الرسالتين قولة جديدة فى عصرنا لم يقل بها سوى قِلَّة لم تتخصص فى هذا الموضوع ولا هى تفرغت لتحقيقه ، وإنما تناولته جملةً فيما تناولت من مواضيع عامة فى النثر العربى ، أما الأقدمون فلم يذكروا من ذلك شيئًا ، على كثرة ما ذكروا من تأثر الأدب المغربى بأدب المشرق ، وعلى ما أحصوه من معارضات كُتَّابهم وشعرائهم لأبى العلاء »[1] .

وأنا لا أدرى كيف تجزم الدكتورة الفاضلة أن أمثال أحمد ضيف وزكى مبارك وأحمد أمين – وإِنْ لم تنَصَّ عليه – قلة لم تتخصص فى الموضوع ؟ وما معنى التخصص لديها ؟ أيكون مفهومه أن يصدر الكاتب مؤلفًا خاصًّا فى هذه الناحية دون أن يتعرض له فى مؤلف عام – وإلاَّ كان غير متخصص ؟ .. وإذا كان ذلك هو ما تعنيه ، أفيجوز لنا أن نقول إنها إن تكلمت عن المتنبى أو شوقى أو أبى نواس – أو أى أديب عربى لم تكتب عنه مؤلفًا خاصًّا – تعد غير متخصصة فلا يجوز لها أن تصدر الرأى الأدبى إلا فى كتاب كبير خاص ذى صفحات ؟ لا شك أننا نظلم الدكتورة الباحثة لو قلنا لها ذلك ، كما ظلمت زكى مبارك وأحمد ضيف حين سلبت عنهما الاختصاص بدون مبرر معقول . ثم إنى لم أرَ مِنَ الباحثين الأقدمين مَن عنى بإحصاء معارضات كُتَّاب الأندلس لأبى العلاء ، مَنْ مِنْ هؤلاء ؟ وفى أى الكتب ؟ حتى تقول الدكتورة ... وعلى ما أحصوا من معارضات كتَّابهم وشعرائهم بالأندلس لأبى العلاء ؟

---

(١) الغفران ، ص ٢٠٩ ، ط دار التعارف .

ثم تقول الدكتورة الفاضلة : «وكان على القائلين بمحاكاة إحدى الرسالتين للأخرى أن يقفوا عند هذا الصمت من الأقدمين ، وأن يفسروا لنا كيف غاب هذا عن مثل مروان ابن حيان المؤرخ الأندلسى المعروف بالصدق والدقة، وقد كان قريبًا من عصر ابن شهيد ، وعن مثل أبى النصر الفتح بن خاقان ، وعن مثل أبى الحسن على بن بسام وهو حجة ثقة ... إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون أثرًا مبتدعًا لا رسالة مقلدة....»[١] .

أما الصمت الذى سألت عنه السيدة الفاضلة فله ما يبرره بدون نزاع ، لأن الدكتورة نفسها تعلم أن الرسالة لم تكن مشهورة بين آثار أبى العلاء قبل القرن الثالث عشر ، وقد قالت الدكتورة بنت الشاطئ بالذات فى مقالها عن رسالة الغفران ما نَصُّه[٢] :

«... وحتى القرن الثالث عشر الهجرى لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلماتٍ قصارًا ذكرها مؤرخوه فى ترجمته ، وقد اكتفى القفطى فى (إنباه الرواة) بإثباتها فى فهرس مصنفاته بين رسائله الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وكذلك فعل سبط ابن الجوزى فى (مرآة الزمان)، فذكرها بين المصنفات الحسان لأبى العلاء ، وأبو القاسم الكلاعى المغربى الذى أشار إليها فى أحكام صنعة الكلام بين رسائله التى لها بال ، وآخرون تحدثوا عنها فى بضع جمل ، مثل : ياقوت الحموى ، والذهبى ، والصفدى ، وابن العديم ، ثم قالت الدكتورة : «ومن مجموع هذا نخرج بأن المعروف عنها إلى القرن الثالث عشر هو أنها من رسائل أبى العلاء الحسان الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة فى مجلد واحد ، وقد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها ما هو من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه[٣] ، وما يدل على تمكنه من الأدب واطلاعه على اللغة».

---

(١) الغفران ص ٣٠٩ للدكتورة بنت الشاطئ ط دار المعارف .

(٢) العدد السادس من المجلد الثانى من سلسلة «تراث الإنسانية» – ٥ يونيه سنة ١٩٦٤ ، ص ٤٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٣.

فإذا كان هذا هو المعروف عنها فى الشرق باعتراف الباحثة الجليلة ، فكيف تريد أن يعرف عنها ابن حيان والفتح وابن بسام أكثر مما يعرف المشرقيون ؟ أعرفت إذن سر الصمت من هؤلاء ؟... إنه واضح صريح ، فالرسالة لم تشتهر بالأندلس شهرة غيرها من آثار أبى العلاء .

على أن الباحث المتأمل يقرأ قول الدكتورة عن ابن حيان والفتح وابن بسام : «إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون به أثرًا مبتدعًا لا رسالة مقلدة» ، فيرى أن هذا القول يخدم الحق من طرف واحد فقط ، لأنه يثبت الابتكار لابن شهيد ، وهو ما نذهب إليه ، ولكنه لا يفيد من ينكرون تأثر الغفران بالتوابع إطلاقًا ، ومن بينهم الدكتورة الفاضلة . فالتوابع مبتدعة مبتكرة ، وهذا حق ، ولكن أين مثل هذا القول من هؤلاء عن رسالة الغفران .

وتمضى الدكتورة الباحثة فى الاستدلال فتقول ببعض التصرف[1] : لقد كان هذا يغْنينا عن الرد على دعوى التشابه ، لكننا مع ذلك نمضى فى النظر فى الرسالتين فنرى ما بينهما بعيدًا . من المسلم به أن بينهما أوجه تشابه ، لكنها ليست خاصة بهما ، وإنما هى من الظواهر الأدبية التى يمكن أن تلتمس عند غيرهما من أدباء العصر أو فى الآداب على وجه العموم ، صاغ كلاهما أحكامه الأدبية فى أسلوب شائق على طريقة الحوار ، ولكن ليس هذا مما اختص به أحدهما حتى يؤثر بادعاء السبق إليه ، وقام كلاهما برحلة فى عالم الخيال أنطق فيها الجن والحيوان ، لكنا نلقى مثل هذا فى القصص والأساطير وأخيلة الشعراء ، وأراد كلاهما عرض براعته فى الصنعة ، وتفوقه فى الحفظ ، والإنشاء ، ولكن ذلك مما يمكن أن يقال فى كل ما كتب الرجلان وغيرهما من صُنّاع الكلام ، وأَحَبَّ كلاهما أن يبهر صاحبه (الذى بعث برسالته إليه) ، ولكن أى أديب لا يتجه إلى مثل ذلك.

---

(١) الغفران ، ص ٣١٢ – ٣١٤ .

وهب شيئًا من هذا التشابه فى الأسلوب والهدف قد كان ، فكيف يقوم وحده دليلاً على التشابه إذا اختلف جوهر الموضوع وتباينت روح الكاتب ، وتغيرت شخصية البطل ؟ رسالة الغفران بطلها ابن القارح ، أما أبو العلاء فيتوارى كما يتوارى الملقن وراء الستار لا يظهر على المسرح ، ولا يذكر اسمه على لسان ، والتوابع بطلها ابن شهيد نفسه كاتب الرسالة ، ومؤلف الرحلة لا يتوارَى فى مشهد من مشاهدها ، ولا يقوم ثَمَّ حوار أو عرض أدبى إلا كان هو الشخصية الأولى .

الغفران تصور أشواق أبى العلاء ، وترسم أحلامه ، وتسجل رؤاه ، وتعرض آراءه ومذهبه فى النقد ، والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد ومجال لإنشاء قصائده .. أبو العلاء متفنن حافظ راوية ، وابن شهيد شاعر فخور»[1] .

هذه هى حيثيات الدكتورة بنت الشاطئ ، ومن يعيد النظر فيها يرى أنها كانت تحتم أن يكون النصّان متقاربين تمام التقارب حتى نقول بالمحاكاة ، وهذا بعيد ، لأننا فى قضيّة الموازنة بين النصوص الأدبية نفرق بين التأثر والاحتذاء ، فللتأثر أن يستلهم اللاحق سابقًا فيلهمه ، مهما ابتعد عن جوه ونأى عن مسرحه ، فحسبه أن وجّه عينه إلى أفق جديد لم يكن يخطر على باله من قبل ، فلو سارَ فى طريق غير طريق صاحبه ما قدم ذلك شيئًا ولا أخّر فى جوهر القضية ، وحسبه أن أراه السبيل ، فابن شهيد قد ابتكر الكتابة عن بعض عوالم الغيب فتأثر به أبو العلاء وأحبَّ أن يكتب عن بعض هذه العوالم أيضًا ، وإنْ سار الأول فى طريق الجن والثانى فى طريق الجنة والنار ، هنا نحكم للسابق بالتأثير واللاحق بالتأثر .. ولن نتطلب منه أن يحذو حذو سابقه ، وإلا فقد شخصيته الأدبية وأصبح تابعًا هزيلاً لا يضيف إلى الأدب شيئًا ذا بال ، ومعاذ أبى العلاء أن يكون كذلك . نعم إن كليهما صاغ أحكامه فى أسلوب شائق على طريقة الحوار – كما تقول الباحثة – وكليهما عرض صناعته وفنه وأحب أن يبهر قارئه ، وأن البطل عند أبى العلاء هو ابن القارح ، وهو ابن شهيد نفسه فى رسالة التوابع ، والغفران تصور أشواق أبى العلاء والتوابع ديوان ابن شهيد ، هذا كله صحيح ، ولكنه لا يغير من جوهر القضية شَرْوَى نقير، فالرحلة

(١) الغفران للدكتورة بنت الشاطى ص ٣١٤ .

الخيالية هى سر الإبداع ، ولو كانت المسألةُ مسألةَ حوارٍ لقرنت بالمقامات ، أو حديثًا عن النفس لقرنت بقصائد الفخر ، وسيان إنْ تكلم أبو العلاء عن غيره أو نطق ابن شهيد عن نفسه ، فتلك جزئيات تتداخل فى إطار عام ، هو الرحلة المبتكرة التى اخترعها ابن شهيد .

ولا أدرى لماذا لا يكون ابن شهيد قد تحدث عن أشواقه وأحلامه كما تحدث أبو العلاء ، ألا تصور التوابع والزوابع أحلامه فى الأدب والشعر ، ورغبته فى التفوق والإعجاز ؟ وليت شعرى .. أىّ الأديبين أقرب إلى الحديث عن نفسه : أديب يتحدث على لسانه هو ، أم أديب يتحدث على لسان ابن القارح ؟ حتى نجعل الثانى يصور هواتف نفسه – ولا معارضة فى ذلك – ونُصِرّ على أن يكون الأول بعيدًا عن أشواقه ، مع أنه – بإقرار الدكتورة – بطل الميدان . وإذا كانت التوابع ديوان شعر ابن شهيد ، أَوَ لَيْسَ الديوان فى مجموعه خلجات نفس وهمسات وجدان ؟ إن علماء الأدب المقارن يجعلون من اختصاصه أن يَدرس مواطن التلاقى فى الآثار الأدبية ، ومظاهر التأثير والتأثر، سواء تعلقت بالأصول الفنية للمذاهب الأدبية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التى تعالج أو تحاكى فى الأدب . وكانت خاصة بصور البلاء المختلفة كما تنعكس فى الآثار الأدبية[1] ... فكل موطن للقاء بين الآثار الفنية مجال للدراسة والتحليل ، فالحكم بالتأثر والتأثير ، ولن نجد موطنًا أفسح ولا أوسع من رحلتين خياليتين قامتْ أولاهما فى الأرض السابعة ، وارتفعت أُخراهما إلى السماء العالية . ثم ألا يكون هذا التناقضُ المعارض دليلَ التأثر الواضح حين يذكر الشىء بنقيضه كما يذكر بمثيله على السواء ؟ إذا كانت الدكتورة الفاضلة فى شك من ذلك فلتسأل نفسها : ألا يذكرها هدوء الليل بضجيج النهار ؟ تلك المسألة واضحة . ولَعَلَّ أبا العلاء لو سُئل عنها ما رأَى أىَّ حَرَجٍ فى الاعتراف ، وإذا كان قد أغفل الحديث عن ابن شهيد حتى يحسم الخلاف فعذره أنه لم يتحدث فى رسالة الغفران عن أندلسى قط ، وقَلَّ حديثه فى غيرها عن هؤلاء .

---

(١) الأدب المقارن ، ص ٩ ، ط ثالثة .

وقد أتى الأستاذ الدكتور أحمد هيكل ببعض الجديد فيما كتبه عن ترجيح صلة الغفران بالتوابع ، هذا الجديد يتعلق بتحديد الزمن الذى كُتبت فيه رسالة التوابع ، كما يتعلق بمن كتبت له الرسالة ، أما الزمن فقد جعله الدكتور زكى مبارك فى حكم سليمان المستعين ، وقد ولى ما بين سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٠٧ هـ ، فتكون التوابع قد سبقت الغفران بعشرين عامًا ، أما الدكتور هيكل فيرى أن التوابع قد سبقت الغفران بما لا يقل عن تسع سنوات فقط ، ودليله واضح شرحه حين قال[1] ردًّا على زكى مبارك :

«على أن ذلك الرأى ليس دقيقًا ، فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ ، ومن ذلك قصيدة ابن شهيد التى قالها وهو فى سجن الحموديين ، فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود ، الذى نُغَلِّب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسه الثائر عليه – وهو يحيى بن حمود – وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ ، وفى الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبى عبيدة حسان بن مالك ، وكان هذا المرثى ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ ، وفى الرسالة أبيات تشير إلى شافعية ابن حزم، وقد كان شافعيًّا فى هذه الفترة ثم تحول إلى المذهب الظاهرى بعد ذلك ، وعلى هذا يمكن أن نقول إن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥هـ» .

هذا هو الجديد الأول ، أما الجديد الثانى فى كلام الدكتور هيكل ، فهو تقريره أن الرسالة لم تُوَجَّه إلى أبى بكر بن حزم – كما ذكر ابن بسام – وإنما وجهت لشخص آخر يدعى أبا بكر ، فظنه صاحب الذخيرة أبا بكر بن حزم ، ودليل الدكتور أن أبا حزم مات فى طاعون قرطبة سنة ٤٠١هـ ، كما ذكر أخوه فى طوق الحمامة ، وإلى هذه السنة لم يكن ابن شهيد قد كتب الرسالة ، ثم يرجح الدكتور هيكل أنها موجهة لأبى بكر الكاتب المعروف بأشكمياط ، لأنه كان ينتقد ابن شهيد ويعيبه بأخذ كلام غيره ، وقد رَدَّ عليه ابن

(١) الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ، ص ٤٢٢ .

شهيد معاتبًا لائمًا ، وهددّه وتوعده فى فصل ذكره ابن بسام[1] ، وأنا أوافق الدكتور على استنتاجه أنها ليست لأبى بكر بن حزم ، ولا أوافقه على استنتاجه أنها لأبى بكر أشكمياط ، لأن ابن شهيد يقول فى مطلعها عن رأى صاحبه فيه : «حين لمحت صاحبك الذى تكسبته ورأيته قد أخذ بأطراف السماء فألف بين قمريها ، ونظّم فرقديها ، فكلما رأى ثغرة سدها بسُهَاهَا ... إلى غير ذلك ، فقلت : كيف أُوتى الحُكم صبيًّا ، وهز بجذع نخلةِ الكلامِ فاسّاقط عليه رطبًا جَنِيًا ، أما إن به شيطانًا يأتيه ، وليس هذا فى قدرة الإنس» . وأبو بكر المعروف بأشكمياط يرى ابن شهيد لصًّا سارقًا ولم يره قد أُوتى الحُكم صبيًّا وأخذ بأطراف السماء ، فألف بين قمريها ، ونظم فرقديها ، فليبحث لنا الدكتور إذن عن أبى بكر سواه .

هذا بعض ما قاله المعاصرون ممن عثرنا على أقوالهم فى صلة الغفران بالتوابع ، وهى صلة تقوم الدلائل على وجودها ، وتعوذ البراهين القاطعة على نفيها ، ونحن مع هؤلاء المثبتين نعترف بتأثير ابن شهيد فى أبى العلاء حتى يقدم إلينا من الأدلة الثابتة ما يقع موقع اليقين .

★★★

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٩٦ .

obeikandl.com